أصول الأخلاق الإسلامية

لحضرة صاحب العزة الأستاذ محمد أحمد جاد المولى بك
كبير مفتشى اللغة العربية بوزارة المعارف

فى سبيل الكمال المطلق والحياة الخالقية أتحدث الى حضراتكم عن أصـول الأخلاق الإسلامية متجاوزا بتلك العجالة حدّ الحصر، فليس هذا الموقف بمتسع لإحصاء التراث الخلق الإسلامى الذى تمخضت عنه الأجيال والقرون .

لقد وثب الإسلام بالأمة العربية وثبة نزعت عنهم شرك الحوادث وألقت عن عواتقهم أعباء الحيـاة التى ناءوا بها، وأنشأها خلقا آخر يشمر بعزة الحياة ونفرها، كما كان له من الأثر فى كل أمة تدين به وتهرع اليه ما يكون للقطر فى المنبت الخصب ، وللغدير الهادئ الفياض فى زهر الرياض : ذلك لأن دين الفطرة تكفل بإصلاح الأجيال عامتها، واتسع للناس على اختلاف نحلهم وتباين أصـقاعهم وتفاوت ثقافاتهم ودرجات حضارتهم، ومتّ الى كل خلق كريم وجمع ما تشتت من مثل الإصلاح ، ولا غرو فهو خاتم الأديان السماوية تضمن أصولها وهيمن عليها وبعث ما سترت الشهوات منها وغير الناس من معالمها، شأنه فى ذلك شأن كل عمل ختامى اليه ينتهى الكمال وفيه يتجلى كل جمال وقد ارتضاه الله للناس دينا لا يقبل منهم سواه ولا يقر فيهم غيره .

" إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ " . " وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ " . " فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ " .

وكان صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى فى الاستمساك بالدين والاعتصام بحبل الله المتين، ولا غرو فقد أثنى عليه العلى العظيم فى قوله جل شأنه : " وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ " كما كان بدعوته متمما لبناء وضع الرسل قواعده، رافعا لصرح أشرف الأنبياء المصطفون على إقامتـه وتعاقبوا على تعهده منذ جعل الله فى الأرض خليفة حتى أشرقت الأرض بنور الإسلام :

قال صلى الله عليه وسلم " بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " .

وها نحن أولاء نعرض طرفا من أصول الأخلاق على سبيل المثال كما أسلفنا :

(أولا) لقـد كان الصدق أساسا متينا قامت عليـه الدعوة ، ونهضت على دعائمه الرسالة ، قطع الرسول صلى الله عليه وسلم بالاعتصام به لسان كل جاحد، وفل سلاح كل منكر

وكان فى يد الرسول معجزة أو شيئا يشبه المعجزة ، بدد من سماء دعوته سحب الشبهات ، ومكن له فى نفوس المعتدلين ، وبنى عليه إنذار العشيرة والأقربين ، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يجمع قومه وذويه ويقول : " أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقىّ ؟ قالوا : نعم ، ماجربنا عليك كذبا . فقال : انى نذير لكم بين يدى عذاب شديد " فآمن من آمن وأعرض من أعرض ، ولم يكن ذلك الإعراض إلا جحودا محضا لا يستند إلى دليل ولكنه يدل على المكابرة والعناد ، ولقد تجلى ذلك فى رد أبى لهب إذ قال : تبا لك ، ألهذا جمعتنا ؟

ويؤيد هذا قول الله تعالى " فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ " ولقد شاد الدين الإسلامى بالصدق ودعا إليه ، واتخذه الرسول سبيلا أمما لكل فضيلة وحصنا منيعا دون كل رذيلة قال تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ " وهذا رسول الله يقول لمن طلب إليه أن يرشده إلى سواء السبيل وأن يجنبه الزلل فى الدين والوقوع فى حمأة الرذائل : " عاهدنى على ترك الكذب " وقال صلى الله عليه وسلم داعيا إلى الصدق : " عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا " .

وإن أجمل ما يكون الصدق فى النصيحة للحاكم . روى أن سليمان بن عبد الملك لما حج قدم المدينة للزيارة وبعث إلى أبى حازم وعنده ابن شهاب فلما دخل عليه قال : تكلم يا أبا حازم ، قال : فيم أتكلم يا أمير المؤمنين ؟ قال : فى المخرج من هذا الأمر . قال يسير إن أنت فعلته قال : وما ذاك ؟ قال : لا تأخذ الأشياء إلا من حلها ولا تضعها إلا فى أهلها ، قال : ومن يقوى على ذلك ؟ قال : من قلده الله من أمر الرعية ماقلدك ، قال : عظنى يا أبا حازم ، قال : اعلم أن هذا الأمر لم يصل إليك إلا بموت من كان قبلك وهو خارج من يديك بمثل ما صار إليك ، قال : يا أبا حازم أشر على قال : إنما أنت سوق فما نفق عندك حمل إليك من خير أو شر ، فاختر أيهما شئت ، قال مالك لا تجىء إلينا ؟ قال وما أصنع بالمجىء إليك يا أمير المؤمنين ، إن أدنيتنى فتنتنى وإن أقصيتنى أخزيتنى ، وليس عندك ما أرجوك له ، ولا عندى ما أخافك عليه . قال : فارفع إلينا حاجتك ، قال : قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها ، فما أعطانى منها قبلت ، وما منعنى منها رضيت .

فهذا وأمثاله مما غرسه الإسلام فى صدور المسلمين فى العهد الأول حتى صدرت عنه أفعالهم ونطقت به جوارحهم ، وبدا فى جميع أعمالهم . وما تغذيهم الرسول صلى الله عليه وسلم فى

أحرج المواقف وأشدها خطرا وبذلهم أموالهم في إعزاز الإسلام ورفع لوائه طيبة بذلك نفوسهم منشرحة صدورهم إلا من فرط صدق إيمانهم وصدق يقينهم وإخلاصهم .

(ثانيا) ولقد كان عدل الرسول وخلفائه من بعده يفوق في تأثيره أقوى وسائل الدعاية في هذا العصر الحديث : لقد سبق الجيوش فاتحا ، وجاب الأقطار سلاحا ماضيا ، وغزا نفوس الأقوام فملكها ، ودخلوا في دين الله أفواجا فنزعوا عن أنفسهم لباس الذلة والقهر واستمتعوا بحرية وعمران شامل ، وعاشوا في ظل ظليل من المساواة التي ما كانوا يحلمون بها قبل أن تشرق عليهم شمس الإسلام . ولهذا جعله الدين الحنيف أصلا من أصوله ، وركنا قويما من أركانه نسخ به سلطان القوة ، ومحا عبادة الأثرة قال تعالى : " يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى" وقال صلى الله عليه وسلم : " اتقوا الظلم إن الظلم ظلمات يوم القيامة " وقد اعتصم الخلفاء به واشتد حرصهم عليه . فهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، كان أكثر الناس تمسكا بالعدل وأبعدهم عن المحاباة والظلم حتى على أهله وأقرب الناس إليه ، وكان من ذلك أن هجره أخوه عقيل وانضم إلى معاوية . روى أن عقيلا وفد على معاوية فأكرمه وقربه وقضى عنه دينه ، ثم قال له في بعض الأيام : " يا عقيل أنا خير لك من أخيك علي . قال : صدقت : إن أخي آثر دينه على دنياه ، وأنت آثرت دنياك على دينك ، فأنت خير لي من أخي ، وأخي خير لنفسه منك لنفسك". ولقد أرسل قيصر رسولا إلى عمر بن الخطاب لينظر أحواله ويشاهد أفعاله ، فلما دخل المدينة سأل أهلها وقال : أين ملككم ؟ فقالوا : قد خرج إلى ظاهر المدينة فخرج الرسول في طلبه فرآه نائما فوق الرمل وقد وضع درته كالوسادة ، فلما رآه على هذه الحال وقع الخشوع في قلبه وقال : رجل يكون جميع الملوك لا يقر لهم قرار من هيبته وتكون هذه حالته ! ! ولكنك يا عمر عدلت فأمنت فنمت . وناهيك بعمر بن الخطاب وعدله الشامل جميع المسلمين لا فرق عنده بين أمير وسوقة ، فقد سار ذلك مسير الشمس ، وصار مضرب الأمثال ومفخرة الأجيال . وما حادث المصري الذي جاء يستعديه على عمرو بن العاص والي مصر وابنه واقتصاصه منه بغائب عن الأذهان ، وقد قال عمر لعمرو في ذلك : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا .

(ثالثا) التنافس في السبق إلى الخير ؛ فقد كان يملأ النفوس في الصدر الأول ، وأكثر ما تجلى وظهر في الخلفاء الراشدين ، فقد كان عمر بن الخطاب يتعهد عجوزا عمياء في بعض حواشي المدينة من الليل فيستقي لها ويقوم بأمرها ، وكان كثيرا ما يأتي فيجد شخصا غيره قد سبقه إلى ذلك فرصده عمر ليعرفه فإذا هو أبو بكر خليفة المسلمين فقال عمر : أنت هو لعمري .

(رابعا) لقد وجه الإسلام نظر العرب إلى الاتحاد وما ينجم عنه من خير وصلاح في الأسر والجماعات ، بجمعهم حول عصبية دينية عامة ألفت بينهم وجمعت شملا ممزقا ، ورأبت

في صفوفهم صدوعا ، حتى قويت شكيمتهم قوة ردوا بها كيد الخطوب ودفعوا عن الزمن ، وأشرع لهم من أبوابه . فكانوا هم بنيانا مرصوصا يشد بعضه بعضا تجمعهم في الأعياد والمواسم والجمعات والحج والحث على التمسك بهذا الأصل حتى يسيل واديه خيرا وبركة وتجرى رياحه عزة وقوة وأهاب بهم أن يستمسكوا به في كثير من آي الذكر الحكيم فقال تعالى: "واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا"

كما حذرهم عاقبة التفرق وسوء المنقلب إذا ما تنازعوا واختلفوا فقال تعالى "ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم" وكلنا يعرف ما كان لهذا الأصل الخلقي من أثر في قوة المسلمين والتمكين لهم في الأرض، وما كان للنزاع والصراع الحزبي من سوء ضعفهم وانهيار بنائهم ، وما حوادث عثمان وعلي ومعاوية ببعيدة عنكم ؛ فقد خاضت بهم لجج المحن واقتحمت بهم شعاب الفتن حتى أصاب بنيان الإسلام ما أصابه . فجدير بنا أن نلتف حول الدين ونجمع الكلمة لله والرسول حتى نظهر بمجد ونزيده ، ونحيي عزا فقدناه وننشر من تاريخنا صفحة سنية آهلة بنبل الخلق وسمو الحياة .

(خامسا) يرى الإسلام يحمل المرء في مواطن عدة على معرفة الواجب والحرص على أدائه وهل الواجب إلا صوت الضمير الذي هو الوازع الإلهي في الإنسان جعله الله فيه لمثل المشعل المنير على شطوط البحار يشق نوره الساطع تلك الظلمات ويهدي سفينة المرء إلى ميناء السلام ، فبين قصف رعود شهواته وهبوب أعاصير نزعاته يرى ذلك النور ويسمع صوتا داخليا يقول: دع هواك وأد واجبك ولو كان فيه حتفك. وعلى ذكر الواجب وقضاء الإسلام على كل فرد بأدائه نقول: إن أنبل صوره لأدائه أن يؤدى طواعية وحسبة من غير أن تشوبه شائبة من دافع نفسي أو رغبة مغرية أو رهبة مردية ؛ فإنه إذا ما سرت في الأفراد عدوى النكول عن أداء الواجب فقد سرت في المجتمع جرثومة الفساد وآذنت شمس حياته بمغيب لا عود معه . ومن الواجب أن تعرف حقوقك فتطلبها من وجوهها وتعرف حقوق غيرك وتؤديها على وجوهها ، وليس من الفضائل ما لا يتصل بسبب إلى حق لك أو حق عليك. وإن الأمم لترقى شئونها الاجتماعية ومدنيتها الخلقية بمقدار رقي هذا الأصل الخلقي في نفوس أفرادها ، فعلى أساسه تطوى الخلاف بين الأفراد وتقوى أواصر الطبقات والأسر، فلا عاد ولا معتدى عليه ، وليس هناك من حاجة إلى التقاضي والتشاكي كما أنه ليس هناك من حاجة إلى أن تستهلك جهود الجماعات والحكومات من معالجة العلل الاجتماعية والنفسية ، فعلينا أن نعنى بتربية الضمير في نفس الفرد فهو كفيل بحراسته من النزاع السيء وحفزه إلى أداء الواجب على أكمل وجه ، وبذلك ترقى الجماعات الإنسانية صعدا إلى تسنم ذرا المجد والسعادة.

(سادسا) ولما كان الحق في أغلب العصور — إن لم تؤيده القوة — تتقلص ظلاله وتختفي معالمه . لم يغفل الإسلام أمر الشجاعة التي هي قوام العزة وسياج القومية وخير

زائد عن الكرامة ، لذلك جعلها من سمات المؤمنين إذ يقول الله جل شأنه " أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم " " محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم " وقال صلى الله عليه وسلم " المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف " ولهذا كان عمر بن الخطاب على زهده الذى لا يجارى ورقته التى لا تعد لها رقة نموذج الشجاعة الإسلامية : القوى عنده ضعيف حتى يأخذ الحق منه والضعيف عنده قوى حتى يأخذ الحق له .

ولقد حدثنا التاريخ أن كل واحد هاجر من مكة إلى المدينة مختفيا إلا عمر فإنه تقلد سيفه وتنكب قوسه ومضى قبل الكعبة والملأ من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعا ثم أتى المقام فصلى ثم وقف على الحلق واحدة فواحدة وقال لهم : شاهت الوجوه لا يرغم الله إلا هذه المعاطس ، من أراد أن تثكله أمه ، وييتم ولده وترمل امرأته فليلقنى وراء هذا الوادى فلم يتبعه أحد منهم ، وهاجر فى حمايته نحو عشرين من مستضعفى المسلمين بمكة .

ولم تكن القوة المادية وحدها هى التى مكنت المسلمين بل القوة الأدبية أيضا والصراحة بالحق فى موضعها لا يخشى المؤمن فى ذلك لومة لائم ولا غضب غاضب . قال معاوية يوما للأحنف بن قيس :

" والله يا أحنف ما أذكر يوم صفين إلا كانت حزازة فى قلبى — لأن الأحنف كان مع على رضى الله عنه — فقال الأحنف : والله يا معاوية إن القلوب التى أبغضناك بها لفى صدورنا وإن السيوف التى قابلناك بها لفى أغمادها وإن تدن من الحرب فترا ندن منها شبرا وإن تمش إليها نهرول لها " . وغيره من أبطال الاسلام وقواده الفاتحين كثيرون بهم نشر الدين لواءه ، وعلت كلمته ، ولئن لجأت الأمم فى مختلف عصورها إلى تنمية الشجاعة وخلقها فى الأفراد والجماعات بمزاولة ضروب من الرياضات يقوى بها خلق الرجولة والبطولة وتبنى بها الأجسام بناية تعين على اقتحام الأخطار ومصابرة الشدائد ، فقد أباح الإسلام كل ذلك فى حدود الاعتدال وخص السباحة والرماية وركوب الخيل بالعناية ، لأنها أمس بالشجاعة وأعون على خلقها ، وجاء بأنواع من المعالجات النفسية والروحية تذلل الصعاب وتعد المسلم للكفاح والمناضلة والحياة الجديرة بالأحياء ، مغالبة للشرور واستعدادا للتضحية وتهيؤا للنجدة وصونا للحرمات وحملات على العدوان تزلزل أقدامه وتوهن بنيانه . قال تعالى " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم " " ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون " .

(سابعا) وهذا الحلم الذى له من المزايا ما ارتفع بها حتى صار سيد الأخلاق جعله الله ملاك الدعوة ورمز الرسالة وسمة النبوة فقال تعالى : " فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم " .

وليست [illegible] فيه [illegible] المآرب، وتقوى [illegible] وتقتل السخائم، وتمحو عرس الأثرة، وتردهر رياض المودة: قال تعالى: " ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ". وهذا مثل لمقابلة الإساءة بالإحسان، فإن رسول الله لما فعل به المشركون ما فعلوا يوم أحد وطلب منه أن يدعو عليهم قال " اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون " وحسبك في هذا الباب ما فعله به مشركو قريش الذين آذوه واستهزءوا به وأخرجوه من دياره وأصحابه ثم قاتلوه وحرضوا عليه غيرهم من مشركي العرب حتى تمالأ عليه جمعهم، ثم لما فتح الله عليه مكة ما زاد على أن عفا وصفح وقال: ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

(ثامنا) والحياء أصل خلق يصرع الميول الفاسدة، ويغالب نزغات الشيطان، ويورد صاحبه آمن الموارد ويكسبه الحسنى وزيادة. والشر لا ترتسم مظاهره إلا على الوجوه السمجة ولا تسكن دواعيه إلا قلوب الهمج والرعاع الذين تجردوا من خلق الحياء: قال تعالى: " يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم " وقال صلى الله عليه وسلم: " ما كان الفحش في شيء إلا شانه وما كان الحياء في شيء إلا زانه " وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " استحيوا من الله حق الحياء قال: قلنا يا نبي الله، إنا لنستحيي والحمد لله. قال ليس ذلك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، وتحفظ البطن وما حوى، وتذكر الموت والبلى ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء " : وقال: إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: " إذا لم تستح فاصنع ما شئت " " إن لكل دين خلقا وخلق الإسلام الحياء " وإن أمهات الفضائل الإسلامية لتتجلى في قول علي كرم الله وجهه " من علامة المؤمن أن ترى له قوة في دين وحزما في لين، وإيمانا في يقين، وحرصا في علم، وعلما في حلم، وقصدا في غنى، وتجملا في فاقة، وصبرا في شدة، وطلبا في حلال، ونشاطا في هدى، وتحرجا عن طمع لا يحيف على من يبغض، ولا يأثم فيمن يحب، ولا يدخل في الباطل ولا يخرج من الحق، بعده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة، ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة ".

ويحسن بنا أن نعرض لشهادة المقوقس في المسلمين فقد قال لرسله إليهم: " كيف رأيتموهم؟ قالوا: رأينا قوما الموت أحب إليهم من الحياة، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة، ليس لأحدهم رغبة في الدنيا ولا بهجة، أميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد منهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم فقال المقوقس " والذي يحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد ".

وفي الختام نسأل الله حسن التوفيق إلى ما يرضاه، وأن يجعلنا أعزة بين العالم فهو ولينا ونعم المولى ونعم النصير.

محمد أحمد جاد المولى